

وهو يقول هذا كله في لهجة جد واقتناع ويقين حتى ينسيني أو شابان نقصد إلى النزهة في ريفنا ذلك البعيد، يقف متدفق لا يريد أن يهدأ يسأل ولا ينتظر الجواب، يجيب وهو يمضي في حديثه لا يلوي على شيء، ويعجزني اتباعه ولكنه ماض في حديثه، لا يقف عند شيء ولا يلوي على شيء، عني وعما أحب فكأنما أنا أتحدث عن نفسي. قال : فإنك لا تريد البقاء في هذه الحديقة لأن نفسك لا تنهيا للخلوة ولا للحديث الهادئ المطمئن وإنما أنت اليوم مهياً للحركة وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشي ولولا أنك شديد الحياء، والعقبات الأثرت العدو ولكلفت بالجري السريع، العامة فليس لك في هذه الحديقة أرب منذ اليوم. هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو، وهأنذا أحس أن قدميك تثقلان وأن نشاطك ينال منه الفتور، أنك تؤثر مشياً رزيناً هو إلى التلكؤ أدنى منه إلى الجد والسرعة لقد فهمت أن مكانك من هذه البيوت الأربعة التي تنتظم على شاطئ القناة في نسق بدیع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتف والأغصان المتدلّية على الأسوار وأنت تريد أن تسعى سعيأهيناً إلى جانب هذه الأسوار وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضرا للنضر لأنك تجد في مسها راحة ولذة ونعيماً لنفسك وهدوءاً لقلبك تريد أن تقف وأن تعبت بهذا اللباب الذي يتلوى على سور تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه تعلم ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب وتدعو عثمان أو محموداً، فمن يدري؟ لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن يدعوك إلى الدخول لتتحدث إليه، وإن نفسك لشديدة الالتواء، لم تكذب على نفسك؟ وتكذب علي؟ إنك لا تريد عثمان وإنما تريد أن تدخل الدار وتقطع إليها هذه الحديقة العريضة متلكناً بعض الشيء، والمهل، حتى إذا بلغت الدار وأجلست في هذه الحجرة المتواضعة أرضاً قد رصفت أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها، قل إنك لا تريد عثمان ولا تبتغي الحديث إلى محمود، أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة في الغصن المورق اللدن، بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع إلى الصوتين جميعاً. أيهما أثر عندك وأحب إليك؟ صوت هذه الفتاة الناهد التي وقد أم صوت أختها أمينة هذه التي نيفت على العشرين، وفي قلقاً لا تتبين ولا سره ولكنك تخافه وتحبه معاً. مسرفاً فيما تتيح لضميرك من حرية. إنك لتحب الصوتين جميعاً، وتحب أن تنعم ما وسعك. تثيران في نفسك من هذه العواطف الحادة المبهمة الغامضة، لتسمع لهما إذا تحدثتا أو ضحكنا أو جاءتا بشيء من الحركة فتعي وأخذت تتخيل ما أحسست به من حركة، وأخذت تتعمق هذا كله، وتستخرج ولكنها تنسيك نفسك وأهلك ودارك، وتنتهي بك إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذي تعيش فيه، الستُ أصور ما تجد وأقص ما تحس وأحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه؟ ولكنك قد أطلت الجلوس بين عثمان و محمود، صلاة الظهر، ولئن بقينا لتُدعين وأنا أعرف أن حيائك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء، وأن نفسك تنازعك إلى البقاء. أرسلت نفسك على سجيته لأقمت ولاحتملت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان ولكن لا سبيل إلى الإقامة، وكيف تلقى أمك؟ وكيف تجيبها؟ فأما الآن قصدني أما الآن وقد تجاوزنا عشية الدار، وأغلق من دوننا الباب، عثمان ومحمود أدراجهما في الحديقة واستقبلنا القناة، فوقفنا أنعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار؟ أم نمضي عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم ثم أثرتنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدي نسعى هادئين. أما الآن فإنني أحمد جدك وحزمك أعاجيب ولا يألّفها أهل الأقاليم، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو. أمينة القراءة في بعض القصص، على أنني لا أفهم كلفك بالاستماع لعزيزة وأمينة، وافتناك بأحاديثهما هذه التي يلتوي فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة في تأنق وتكلف وتعتمد للفتنة، نفسها، رقيقة خفيفة حسنة الموقع في الأسماع، ولا يليقه كما تلقيه نحن إلقاء لا يعجبني شيء من هذا لأنني أراء تكلفاً واستمعنا لهما في ولعلهما يومئذ أن تجدا إلى نفسي الغليظة سبيلاً، أما الآن فإن قلبي مغلق دونهما إغلاقاً، وما وصوت محبب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء ستغضب وستثور وستنكر ذوقي أشد الإنكار، ولكني لا أتردد مع عزيتك هذه المتكلفة المتصنعة، علي، على أمينتك هذه التي ترى أن ليس على الأرض امرأة تعدلها